ليلة حبّ

كان يكره نفسه !!

يكره منها ذلك الحذر والتردد والضعف ، والخوف كلما أضحت محطا للأنظار .

لم تكن القدرة هى التى تنقصه .. ولكنها كانت الثقة .. كانت الجرأة والإقدام .

انه لم يكن عاجزا ولاضعيفا .. وكان يملك الجهد والقدرة ، ولكن هذه القدرة لم تكن تستطيع أن تتعدى النطاق الضيق الذى يقوم فيه بالتدريب والمران حيث يشعر أنه ليس هناك من يرقبه ، وأن عمله لاتتوقف عليه نتائج حاسمة أو كسب خطير مرتقب .

فاذا ما خرج من ذلك النطاق الضيق وأحس بالأنظار تتطلع إليه .. وبأن على جهوده تتوقف نتائج خطيرة لنفسه أو لفريقه أو لمدرسته .. طارت من نفسه الثقة .. وضاعت القدرة وبدد الجهد .. وتملكه الاضطراب والخوف .. وتمنى لو استطاع الفرار من الميدان .

تلك كانت شيمته فى كل عمل يؤديه .. سواء أكان عمله ذهنيا أو جثمانيا .. وسواء أكان امتحانا دراحيا أو مبارة رياضية .

ما استطاعت نفسه أبدا أن تنصفه أمام الغير .. بل كانت تخذله فى كل مباراة وامتحان ومسابقة .

واتهمه رفاق الطفولة والصبا بالجبن .. واقتنع هو بتهمتهم .. ولم يكن يملك غير ذلك .. وكل الشواهد .. والظواهر تدل عليها وتؤكد وجودها .. وهو يشعر فى قرارة نفسه .. انه حقا يفتقد الثقة والجرأة والشجاعة والإقدام .

ودخل الكلية الحربية .

والكلية الحربية - لمن لايعرفها - أشبه بدوامة فى أيامها الأولى .. التى يطلقون عليها .. أيام المستجدين .. والطلبة فيها أشبه بكوم من القش تدور به الدوامة .. لايميز فيها واحد عن غيره .. ولايعرف فيها الطالب رأسه من قدمه ولا بداية يومه من نهايته .. بل تظل الدوامة تلف وكأنها تلعب به (دوخينى يالمونة) فلا تتركه عند نوبة نوم الا وقد أضحى جسدا هامدا لاتبعث فيه الحياة الا نوبة الصحيان .

وأضاعت رهبة الكلية ومشقتها والذعر الذى يشيعه صف الضباط فى نفوس المستجدين .. والبقية الباقية .. من الثقة التى كان يحتفظ بها لنفسه .. فى نطاقه الضيق .. عندما كان يشعر أنه وحده ليس هناك من يرقبه .. لأنه لم يشعر قط فى الكلية أنه وحده .. وأنه ليس هناك من يرقبه حتى فى ساعات النوم .

ووجد نفسه .. يتحرك فى دوامة الكلية ضالا نكرة مجهولا .. كأنه فرد فى قطيع متشابه لايميزه مخلوق ، ولايشعر به انسان .

حتى أحس ذات يوم بأنه ليس مجهولا تماما .. بل ان هناك - لدهشته الشديدة - من يعرفه ويميزه .

لم يكن مخلوقا ذا بال .. ولا مكانة ولاحيثية ، ولكنه مع ذلك سرّه أن يميزه .. والإنسان النكرة المجهول .. لايدقق كثيرا .. فى حيثية من يمنحه شرف التمييز بين القطيع المتشابه المجهول .

ومع ذلك فلم تدم فرحته بالتمييز طويلا .. عندما اتضح له أن الرجل .. قد منح هذا الشرف جميع زملائه من الطلبة .. وأنه قد ميز القطيع فردا .. فردا .

ولم يمنع ضياع فرحته بالتمييز .. وسخطه على الرجل الذى أشرك الكل فى التمييز والمعرفة واعجابه المفرط بذكائه ودهشته الشديدة من قوة ذاكرته .

كان معقولا أن يميز الرجل صف الضباط فهم قلة معروفة مسيطرة مميزة .. وكان معقولا أيضا أن يعاونه بعض الذكاء المفترض - رغم أميته وتقدم سنه - على معرفة طلبة القسم المتوسط فهم لايزيدون على بضعة عشر طالبا وقد مضى عليه عام وهو يبيع لهم (الاسباتس والسيدر وبقية أنواع الكازوزة) .

كل هذا كان معقولا .. أما أن يميز الرجل دفعة المستجدين بأكملها وقد بلغت الخمسين .. ولم يمض عليها أكثر من شهر فى المدرسة .. فقد كان أمرا بلاشك يستحق كل اعجاب وتقدير .

ولقد وضحت قدرة الليثى (اسم الرجل) لصاحبنا عندما اندفع اليه أول مرة وقد استقر بصندوقه الملىء بمختلف أنواع الكازوزة تحت

السلم الحجرى المفضى الى عنابر النوم يرجوه أن يحتفظ (بالبل) حتى يأخذه منه عقب انتهاء الحصة .

(والبل) لمن لا يعرفه من غير العسكريين ، هو مجموعتان من الأكياس المزررة توضع فيها الطلقات وتشدان الى الكتفين بحمالات والى الوسط بحزام ويلبسهما الطلبة فى طوابير التمرين على البندقية .

ولم يكن صاحبنا وحده الذى اندفع الى الليثى يرجوه الاحتفاظ بالبل ، فقد اندفع بعض أفراد الفرقة يرجونه نفس الرجاء اذ كانت الحصة تقع بين طابورين ، ولم يكن لدى الطلبة وقت للصعود الى العنابر لوضع البل والهبوط الى الفصل ، ثم الصعود لإحضارها مرة أخرى بعد الانتهاء من الحصة للبسها فى الطابور التالى ، اذ كان المفروض ألا يدخلوا الحصة بها ، وكان الزمن بين الحصص لايكفى للصعود الى العنابر والهبوط منها .

وكان أكثر ما يقلق صاحبنا وهو جالس فى الحصة ، هو ما يخشاه من خلط البل .. ولكن لم تكد تنتهى الحصة ويذهب الى الرجل حتى وجده يسلم كل واحد بلة ، بابتسامة مرحبة وكأنه يعرف كلا منهم معرفة وثيقة .

وبدا له أن قدرة الرجل على تمييزهم سببها قلة عددهم ، وأنه استطاع ببعض التذكرة أن يعى صورة لكل منهم ويعرف أين وضع بله ، ولم يعجزه بعد ذلك أن يسلمه له .

ولكن الأمر تكرر بعد ذلك ، واستقرب الطلبة كشك الليثى الكائن أسفل السلم .. وازداد عدد الطلبة الذين يحتفظون بالبل عنده .. ومع ذلك فلم تخن الرجل ذاكرته .. بل كان يأخذ من كل منهم بله ،

بابتسامته المرحبة ، فاذا عاد لأخذه سلمه له بلا أدنى تشكك .. بل كان يبدو وكأنه يعرف كلا منهم معرفة وثيقة .

ومرت ايام المستجدين بصاحبنا وهو يعدو مع القطيع فى الدوامة .. نكرة مجهولا .. لايميزه أحد .. ولايحترمه مخلوق .. سوى عم الليثى .

حتى بدأ الخروج فى عطلات الخميس والجمعة ، فاذا به يجد نفسه مميزا ، ومعروفا .. بل وأكثر من هذا مما لايجسر على تحديده بالضبط .. من مخلوق .. أجل وأخطر .. من الليثى .

كان مخلوقا ناعما رقيقا .. وعلاقته بالمخلوقات الناعمة الرقيقة .. كانت كلها فيما مضى .. علاقة من طرف واحد ، فما كانت خشيته ووجله وخوفه واضطرابه ، وحاجته الى الثقة والإقدام تهيء له أكثر من التطلع والتمنى والهيام المطوى فى الصدر والجوى الخبيء بين الضلوع .

وكان المخلوق الناعم الجديد الذى أحس به وميزه ، وربما أكثر من ذلك .. هى مديحة صغرى أختى رأفت أعز أصحابه فى الكلية .

رآها أول مرة فى دار صاحبه ، وقد دعاه ذات خميس لسماع أول اذاعة لأنشودة عبد الوهاب (كليوباترا) .

والصوت منبعث فى سكون الليل .. بشعره الرقيق ، ولحنه العذب ، والناعمة متكئة بذقنها على كفها ومرفقها على ساقها ، وقد مالت فى مقعدها الى الأمام مأخوذة بالإصغاء .. وقد انعكس ضوء المدفأة الأحمر المتراقص على جانب وجهها فبدا رقيقا رائعا بطرف أنفه الأشم وفمه الرقيق المضموم .

وهو موزع المشاعر بين اللحن المنبعث والوجه المصفى وكل ما حوله من تعاون على ارهاف حسه والهاب عواطفه والصوت يردد :

(ياحبيبى ! هذه ليلة حبى   آه لو شاركتنى أفراح قلبى)

وتنهيدة رقيقة تنبعث من صدر الناعمة الحالمة المصغية النشوى .

ولم يكن هناك أعنف من هذا هجوما على قلب ، ولا أحر من ذلك دعوة الى حب .

وأحبها صاحبنا .. بكل ما يملك من عجز وخشية وضياع للثقة .. وفقدان للجرأة والإقدام ، ومرّت أيامه حثيثات سراعا .. وهو مغرق فى حبه السلبى ، وعاطفته المستسلمة العاجزة .

وفى المدرسة بدأت طبيعة خلقه تظهر أشد ما تكون وضوحا وجلاء .. قدرة فى المران والتدريب .. وعجز فى المباريات والمسابقات .. قوة بينهُ وبين نفسه وضعف أمام المشاهدين .

وفى كل مرة يحاول التماسك والتجلد والاحتفاظ بثقة في نفسه وقوته وقدرته .. ولايكاد يشعر بالأنظار تحيط به ، ويحس بأن عليه تتوقف نتيجة المبارة حتى تتسارع دقات قلبه ، وتتوتر أعصابه ويفقد كل سلطان على نفسه .. ولايبقى منه الا انسان عاجز يكاد يخر جزعا واعياء .

وحلّ موعد الحفل العام الذى تقيمه المدرسة آخر السنة وكان أكثر مايخشاه هو حضورها لمشاهدته .

وبدأ الحفل وهو يعلم أنها فيه .. ولكى لانظلمه نقر بأنه بذل أقصى مايمكن أن يبذله مخلوق للسيطرة على أعصابه والاحتفاظ بقدرته

وبثقته فى نفسه .. ولكنه رغم ذلك كان فى مباريات الحفل مثلا للعجز والضعف .. حتى لقد كان فى معظمها السبب الأول لهزيمة فريقه .

وتسلل من الحفل وحيدا .. يائسا .. منهارا .. وقادته قدماه الى أسفل السلم الحجرى .. الى كشك الليثى .

وتلقاه الرجل هاشا مرحبا .. وقدّم اليه زجاجة (سيدر) مثلجة يتصاعد من فوهتها الدخان ، ويعلو صدرها ندى الرطوبة .

وجلس يشرب فى صمت مطرقا حزينا .. وحانت منه التفاته الى العجوز البادى الرضا والقرارة .. وطاف بذهنه أن يسأله سؤالا طالما تاق الى الاستفسار عنه .. وهو كيف يحفظ الوجوه بمثل هذه السهولة .. وكيف يميزهم فردا فردا ، ويرد اليهم حوائجهم التى يحتفظ بها دون خلط ولا خطأ .

ورفع رأسه ووجه السؤال الى الرجل .

وابتسم الرجل .. ثم اتسعت ابتسامته حتى كشفت عن بضع أسنان معلقة فى لثته .. ثم انطلقت منه ضحكة طروب وأجاب :

- تريد أن تعرف حقا ؟
- أجل .
- على أن تبقيه سرا ؟
- أجل .. أجل .

- انى اميز كلا منكم بظاهرة فيه .. فى وجهه .. فى جسده .. فى صوته .. فى خلقه .. فى أى شىء مميز به .. وأسميه بهذه الظاهرة .. فهذا مثلا ذو الأنف الكبير .. وهذا الطويل وآخر ذو

الرأسين .. وآخر الجعجاع .. وآخر الأخرس .. والحمار .. والعاقل .. والأنيق .. والمفشكل .. والدّهل .. والحدق . هذه كلها أسماء أميزكم بها ولا أخطئها أبدا .. فاذا ما أعطانى أحد منكم احدى حاجياته .. دخلت لوضعها فى الكشك وأرفقت بها ورقة صغيرة كتبت عليها الإسم الذى أميزه به .. فاذا أتى لأخذها رددتها اليه بعد أن أمزق الورقة دون أن يرانى .. وهكذا أبدو كأننى أعرفكم جميعا .. وأرضى غروركم جميعا .

ورغم ما كان بصاحبنا من حزن وضيق فقد أطربته اجابة الرجل .. وكان السؤال الطبيعى الذى يجب أن يسأل بعد ذلك .. والذى يرضى به حب استطلاعه هو (وأى ظاهرة ياترى سميتنى بها ؟ .

ولقد أوشك أن يسأله لولا أن أضاع الفرصة فوج من الطلبة .. أقبل متدفقا على الكشك وحال بينه وبين السؤال .

ومرّت أيام أخر .. وتخرجت دفعته .. وهو هو .. لايتغير طبعه ولاتتبدل حاله .. حتى كلمة حب .. لم يجسر أن يقدم على قولها .. لمن ولهت قلبه حبا .

ولقد فكر فى خطبتها .. ولاسيما بعد أن خطبت أختها الكبرى وعقد قرانها ، ولكنه يتجاوز نطاق التفكير .. لعجزه عن أى عمل ايجابى ، وفقدانه لكل قدرة على الإقدام على شىء ، وضياع الثقة من نفسه .. وأكثر من هذا وذاك ، احساسه بأنها تعرف فيه ذلك العجز والجبن .. ألم يتأكد لها أمره من يوم الحفل ؟ أتراها تحتفظ له بعد ذلك بأى احترام أو حب .

ورحل مع وحدته الى فلسطين ، ولم يكن فى قرارة نفسه يخشى الحرب فى حد ذاتها ، ولكن خوفه كان من نفسه .. كان يخشى أن تخذله ، كما سبق أن خذلته ، فى كل عمل أقدم عليه .

ومرت بضعة شهور وهو محتل بجنوده أحد المواقع ، دون أن تسنح فرصة الاختبار أعصابه ، وامتحان قدرة نفسه .

وفى ذات ليلة علم أن العدو قد نفذ من الخطوط وأنه قد احتل احدى التباب المشرفة على خطوط المواصلات وأنه يهدد بعزل كل المواقع .

وحلت اللحظة الرهيبة ، واستدعى لتلقى الأوامر لكى يسترد بجنوده الموقع الذى ملكه العدو .

واذا كانت أعصابه .. قد خانته فى ملعب كرة .. أو فى ساحة قفز .. أو فى حلقة ملاكمة .. فقد كان أولى بها أن تخونه فى ميدان قتال .. ولقد خانته فعلا .. فقد عاد الى مواقعه .. متوتر الأعصاب .. خافق القلب .. شارد الذهن .. ولم يكن هناك مفر من تنفيذ الأمر .. فان النكوص مستحيل .. ولم يسعه الا أن يلم جنوده .. ويبدأ الهجوم .

وأجرى المراحل الأولى للهجوم .. بطريقة آلية .. وهو يشعر أن الذعر قد ملك عليه نفسه ، وأن زمام أعصابه يوشك أن يفلت منه .. وأنه لولا بقية من تماسك لأسرع بالفرار .

وبدأت المراحل الجدية للهجوم .

واستمرت قواته تتقدم ، وهو يسير مع الرئاسة فى المؤخرة ، وما زالت نفسه المنهارة ترتجف وتنتفض .

وانطلقت قذيفة من مواقع العدو .. فأطاحت ببضعة من جنوده وأبصر بعينيه أعضاءهم تتناثر فى الهواء كأنها رشاش الماء .

وتوالت القذائف .. ودوّت الانفجارات .

وأحس بالدم يجرى فى عروقه حارا .. وبمراجل الغضب والانفعال تغلى فى صدره .

وفجأة .. شعر بأنه فقد نفسه .

أجل .. لقد فقدها تماما .. بذعرها وخوفها .. وتفكيرها .. وخشيتها .. وانطلق وسط جنوده .. بلا وعى .

وهو لايذكر جيدا ما حدث .. فقد كان حقا يتحرك بغير وعى .. كل ما يذكره هو أنه استمر يندفع بجنوده حتى مواقع العدو .. ثم يذكر صوت انفجار بجواره .. ضمن بقية الانفجارات التى كانت تدوى حوله .

وقد عرف فيما بعد أنه أصيب بشظية أصابت ساعده ومزقت كتفه .. ولكنه يؤكد تأكيدا جازما أنه لم يشعر بها ساعتذاك .. وأنه لم يحس من اصابتها أى ألم .

ورحل فى قطار الجرحى الى مستشفى العجوزة .. وأدهشته أن يسمع ممن حوله أنه قام بأحد أعمال البطولة الخارقة .. وأنه كان شجاعا .

ولم يستطع بالطبع أن يكذبهم .

ماذا يقول لهم ؟ أيقول أن كل ما حدث هو أنه فقد نفسه ؟ . أيقول لهم أن أعمال البطولة .. يقدم عليها الإنسان بلاشعور .. وأنه يفعلها لأنه يجد نفسه لايستطيع أن يفعل سواها ؟

لا .. لا .. يجب أن لايخذلهم ويحرم نفسه من التقدير والاعجاب اللذين طالما حرم منهما فيما مضى .

وخرج من المستشفى .. وكل مايتوق اليه .. هو لقاؤها .. كان يريد أن تراه كما يراه الناس .. فى صورته الجديدة .. كان يريد أن يزيل من نفسها الصورة الضعيفة .. العاجزة .. الخائرة .. والتى يتوهمها عالقة بنفسها .

انه بحالته الجديدة .. يستطيع أن يقدم على خطبتها وأن يبوح لها بمشاعره .. وهو يجد فى نفسه الجرأة على ذلك .

وفى طريقه الى باب المستشفى التقى بأحد زملائه الذى أتى لزيارته ولم يكد يراه خارجا حتى هتف به :

– حمدا لله على سلامتك .. ان رأفت (سيخبط مشوارا على الفاضى) .. لقد لقيته الآن .. فى شارع فؤاد .. وأنبأنى أنه سيزورك .. على أية حال سيسر كثيرا لخروجك اليوم .. لأنه كان يود أن تحضر الاحتفال بعقد قران شقيقته فى نادى الضباط .. لقد دعوا عبد الوهاب لإحياء الليلة ، وهو يعلم أنك تحبه .

ولم يسمع من كل ماقال صاحبه .. سوى جملة (عقد قران شقيقته) .. لقد كانت السهم الذى مرق فى صدره ، والأنفجار الذى دوى فى أذنيه .

أبعد كل هذا .. يفلت الطير ؟ يالها من سخرية !

وانطلقت العربة به تعدو على غير هدى .. وعندما عاد فى النهاية الى البيت .. أكدوا له وقع المصاب بقولهم : ان رأفت أتى لدعوته .. لحضور قران شقيقته .. فى نادى الضباط .

وأقبل الليل .. وبنفس يائسة منهارة ، وذهن شارد ذاهل .. ارتدى ملابسه ليشيع أمله .. الى مثواه الأخير .

واجتاز بعربته كوبرى أبو العلا ، وهو لايكاد يبصر ما أمامه .. وانطلق فى شارع الزمالك ثم دلف من بوابة النادى ووضع العربة فى حشد العربات المصطفة .

وبدا النادى مضيئا متلألئا ، ونغمات الموسيقى تتردد فى أنحاء الحديقة ، وأحس من كل تلك المظاهر امعانا فى السخرية .. ووجدها تنعكس فى نفسه وكأنها النواح والعويل .

واجتاز مدخل النادى ، وعلى يسار المدخل أبصر الغرفة الصغيرة التى تحفظ فيها الكابات والعصى والمعاطف ، ومد يده فرفع الكاب من فوق رأسه وسلمها الى الحارس العجوز الواقف وراء الحاجز الخشبى ، ولم يتمالك نفسه من الدهشة عندما وجد الحارس هو نفسه الليثى بائع الكازوزة فى الكلية .

وسبقه العجوز الى التحية والترحيب ، وتسلم الكاب دون أن يعطه رقما يتعرف به عليها عند استردادها .. ولم يستطع هو أن يجزم بحقيقة ترحيب الرجل به .. اهو قد عرفه حقا وميزه .. منذ ان كان طالبا .. أما تراها مجرد مخادعة كعادته ، وأنه لايلبث أن يكتب صفته المميزة .. ويضعها فى الكاب .

على أية حال لم يملك الا أن يبادل الرجل ترحيبا بترحيب ، ووقف ينتصت مجاملا الى بعض أحاديثه عن أيام المدرسة ، واستطاع الرجل ببشاشته وافراطه فى الترحيب أن يقنعه بأنه يذكره تماما .

وخطا الى الداخل وكان المكان يعج بمن فيه .. فتسلل بين المدعوين واتخذ لنفسه ركنا قصيا .. وجلس يرقب المكان فى صمت وشرود وبنفسه احساس من يجلس فى سرادق عزاء ينتظر خروج النعش بين آونة وأخرى .

وفجأة بلغ مسامعه هتاف باسمه ، وأصابته من الصوت رجفة شديدة .. فقد ميز فيه – على طول الفراق – صوتها .

وتلفت فاذا بها تقف بجواره ترنو اليه بنظرات ملؤها اللهفة والشوق .

ونهض يحييها فى كلمات متحشرجة وهو يشعر بغصة فى حلقه ويسألها قائلا :

– كنت أظن أنى سألقاك فى ثوب العرس ؟

وأجابته فى دهشة :

– ثوب العرس .. لى أنا ؟

– أجل .. ألن يحتفل اليوم بعقد قرانك ؟

ولم تستطيع أن تكبت ضحكة انطلقت من شفتيها :

– .. قرانى أنا .. انه قران أختى سميحة .

– سميحة ! ولكنى أعلم أن قرانها قد عقد قبل أن أسافر فلسطين .

– لم تحدث قسمة فافترقا قبل الدخلة وقد خطبت ثانية واليوم عقد قرانها الثانى .

وأحس بأن الميت الذى أقبل لتشييع جنازته .. قد عاد الى الحياة .. وخيل اليه أنه يوشك من الفرحة .. أن يجن .

وسنحت الفرصة ثانية .. ولم يكن هناك سبيل للتردد والانتظار والخشية والرهبة .

وهمس بها وأنفاسه تتلاحق وكأنما يخشى أن تضيع الفرصة مرة أخرى :

– اسمعى يامديحة .. أريد أن أحدثك على حدة فى أمر هام يخص كلينا .

وتلفت حوله ثم جرّها من يدها قائلا :

– ما رأيك فى جولة قصيرة بعربتى على النيل ؟

– الآن ؟

– أجل .. هيا بنا ننسحب دون أن يحس بنا .

وتسللا من الصالة المزدحمة ، وقبل أن يجتازا الباب مدّ يده فتناول الكاب من الليثى وهو يحس أنه يوشك من فرط السعادة أن يطير .

وشيعه الليثى كعادته بألفاظ الترحيب والمعرفة ، وبعد لحظة كانت العربة تنطلق بالإثنين وقد سرى فى الجو صوت عذب يلاحقهما متباعدا خافتا رويدا :

(يا حبيبى هذه ليلة حبى   آه لو شاركتنى أفراح قلبى)

وفى الليل عاد الى بيته وهو يشعر بالسكينة تملأ قلبه والسعادة تفعم روحه .

وقذف بالكاب على المقعد وخلع ملابسه ، وهو يدندن بأغنيته المحبوبة .

وهمّ باطفاء النور عندما أبصر فى الكاب ورقة .

يا للرجل المخادع .. انه مازال يتبع نفس الوسيلة .. ترى ماذا كتب عنه ؟

لقد آن له أن يعرف صفته المميزة عند الرجل .

ومد أصابعه فالتقط الورقة وقرأ بها :

(الرجل الذى كان جبانا) .

وانطلقت منه ضحكة طروب وهتف لنفسه : الحمد لله على أنه (كان) .

* * *